الطريق إلى استانبول[1]

أ. د. فخر الدين قباوة

جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفيّة - استانبول

رجعتُ إلى وطني الصغير سوريّة بعون الله -تعالى- منذ ثلاثين سنة بعد هجرتي الثانية إلى القَصِيم، وأنا أحمل زادًا جديدًا عن واقع المسلمين المرير، يحمّلني مسؤولية العمل لإنقاذ الأمّة من تفاهات العلوم والآداب والفنون الاستعمارية الخبيثة، فكان لي بعونه -عزّ وجلّ- أبحاث ودراسات ومصنّفات تكشف الداء وتصف الدواء وتبشّر بالشفاء، أوّلها الصرخة المدوّية في كتاب «ولا يزالون يقاتلونكم في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان»، فكان شجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تولّدت عنها بتيسير من الله -سبحانه- غصون وفروع وأزهار وثمار وارفات من الكتب والمحاضرات والجلسات العلمية المباركة.

ولمّا آثرتُ التقاعُد وفضّلتُه على العمل الجامعي المشحون بالتنافس والسمسرة والتمحّل انصرفتُ إلى متابعة تحقيق «رياض الصالحين» وتأليف إعرابه و «الإعراب المنهجي للقرآن الكريم»، وفتحتُ أبواب المجالس العلمية لقراءة التدبّر والدراية في التراث الإسلامي العظيم، فكان لي أسبوعيًّا بضع جلسات في داري بحلب وجَوامع بني أميّة وابن عبّاس والغزالي وأبي حنيفة، يعمرُها إعراب القُرآنِ الكريم والحديثِ الشريف

١ لأخينا النمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) رحمه الله هجرةٌ من الوديان الخانقة والسبل الضائقة إلى فُسحة الأنوار وحقول التفتح والازدهار، سجّلها في كتاب عنوانه «الطريق إلى مكّة» طبع بالعربية سنة ١٩٥٤، وقد سنّ سُنّة طيّبة لمثل هذه الهجرات والمقامات المتباينة في عصرنا الجاهلي الحديث. ولذكرى هذا العمل الكريم ولإحياء سُنّته المباركة أسجّل هجرتي من مدينة حلب إلى مدينة استانبول. حفظهما الله وسائر بلاد المسلمين من فِتن شياطين الإنس والجانّ.

وقراءاتٌ في مغني اللبيب لابن هشام والخصائص لابن جنّي والمفصّل للزمخشري وتصريف الأسماء والأفعال، وكان معي في هذه المجالس نُخبة من الشيوخ والشباب، يطلبون العلم الشريف لوجه الله لا لنيل شهادة أو وظيفة أو مورد عيش.

ومع ذلك تيسّر لي بعون الله -تعالى- إنجاز التحقيق للجزء الحادي عشر من تاريخ دمشق لابن عساكر، كلفتْني به إدارة مجمع اللغة العربية مشكورة، وفي زيارة طيّبة لي قام بها أحد الإداريين الكرام جرى حديث ودّي ذكرتُ فيه ما يجب علينا من تصحيح المسارات العلمية والعملية في البلاد، فكان جواب الأخ الفاضل: إن هذا قول كبير وخطير لا يحسُن ذكره بين الناس.

ولمّا كان ذلك السِّفر العظيم المبارك مَعرِضًا للأحاديث المطهّرة تسنَّى لي خلال العمل بحثٌ مفصّل عن المنهج العلمي لتحقيق النصوص النبوية المشرّفة، يوجّه إلى إخراجها بما يناسب مضمونها وأساليبها الكريمة. ولقد أُعجِبَت إدارة المجمع بعملي -والحمد لله- ورغبتْ إليّ أن أحقّق الجزء الباقي أيضًا، فشكرتُ الرغبة والتقدير، وقلتُ مداعبًا: إنّ ما بين يديّ من الواجبات يستغرق بقيّة حياتي، وهذا العمل الجديد يحتاج إلى ثلاث سنوات، فأرجو أن يعطيني إيّاها أحدُ الإخوان الإداريّين من حياته لأقوم بذلك، فقالوا بدُعابة أيضًا: ومَن يستطيع التخلّيَ عن سنوات من عمره؟

وعلى هذا انصرفتُ إلى متابعة ما يتيسّر من عملي، مع مشاركة في مؤتمرات وندوات علمية، منها ندوةُ «التعريب في التعليم العالي» المنعقدة في دمشق، أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بسوريّة، والنشاطُ الثقافي للجمعية السورية لتاريخ العلوم في حلب، والاحتفالُ بمدينة حلب عاصمةً للثقافة الإسلامية، تيسّر لي فيه عرض محاضرة عن: إحياء البحث العلمي الإسلامي، ومؤتمرُ الانفتاح العالمي لدخولنا مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة كما يقال عقدتْه مديرية الأوقاف بحلب، ودوراتٌ لعمليات التحقيق نظريًّا وعمليًّا ولتحفيز القراءة في المكتبة الوقفية بإشراف الدكتور محمود مصري -أكرمه الله- والجلساتُ السنوية المنعقدة في بيروت لـ «مؤتمر اللغة العربية أمام تحدّيات العَولمة»، جرت في مجمع

كلية الدعوة الإسلامية، تلبية لدعوة الأخ الكريم مدير «معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية» الدكتور الشيخ عبد الناصر جبريّ.

كذلك استمرّت بي الأيّام والشهور والسنوات، وأنا سعيد بما أخدم إخواني وزملائي وأبنائي الأحبّة الكرام، مع الاعتذار عن قبول الأجر من غير الله سبحانه. وفي زيارات مدينة بيروت لحضور المؤتمر المذكور قبلُ لقيتُ بعض العلماء الأكارم، وتعاونّا معًا لنُصرة اللغة العربية وتنميتها في وجه اللهجات العامّية واللغات الأجنبية، فكان لنا مجالس غنيّة بالخير والصلاح، ثم نَقل إلينا رئيس هذه الجلسات أنه يُخطِّط الحُلفاء لتدمير البلاد العربية في عشر سنوات وتقسيمها بينهم من جديد.

والحقّ أن ذلك الخبر هزّني بعنف بالغ: تدمير البلاد العربية وتقسيمها، على ما هي فيه من التدميرات والانقسامات الشنيعة! تلك خيالات وأوهام، وليس للأوضاع المُهلهَلة من احتمالات جديدة للمخطّطات المُهلهِلة الطاغية. كذلك سوّلت لي نفسي لاستبعاد الإشاعات السياسية المنتشرة، ولكن المَعاول بدأت فعلًا بالتهديم والفساد.

فما كان من أولئك المجرمين إلّا أن سارعوا بتوجيه القنَوات والإذاعات الخيانية إلى التحريض وتفجير فتن متأجّجة، بإذاعةِ الأكاذيب وعقد المؤتمرات المضلّلة، واستقدامِ الأفّاكين من محلّلي السياسة والاجتماع والنفس والاقتصاد والحروب، والجمعِ بين الفئات المتعاكسة للتناحر والتكاذب والتخاصم وإلهاب النفوس إلى تأجيج المعارك بين الشعب والطواغيت الحاكمين في بلاد العرب.

وهكذا انطلقَت الشرارة من تونس الخضراء، والتهبتْ معها ليبية المنكوبة بطاغوتها الأحمق ثم مصر الغارقة في غِمار الزبانية فالعراق فسوريّة بين براثن الفراعنة الصغار. لقد كانت الإشاعات إذًا حقيقة مدبّرة، وهؤلاء هم أذناب للحُلفاء العبيد لليهودية العالمية، شياطين البشر كما أسميتهم منذ ٦٠ سنة. هنالك توتّرت أحوال البلاد والعباد مع ما هي فيه أصلًا من التوتّر والاضطراب والامّحاق.

شعرتُ بفداحة الأخطار في جلَسات جماعية، يحضرها الشيوخ والشبّان بدون إذن من السلطات، فبلّغتُ أحبابي الحاضرين أنه من كان منهم على صلة بحزب

سياسي أو جماعة سياسية فعَلَيه ألّا يحضر بيننا لئلّا نُتّهم بنزعة مشبوهة، واستمرّت المجالس بهدوء ويُسر ونجاح في أشهر متوالية، فكان أن اقترح بعض الشيوخ القيامَ بزيارة للرئيس السوري، يطالبونه بإجراءات إصلاحية تُزيل الخلاف والصراع وتيسّر حياة الاستقرار في البلاد.

رغبوا إليّ أن أكون معهم في تلك الزيارة، فاعتذرت عن المشاركة بأنّ هذا قد ملكَ سوريّة بالوراثة عَنوة وأنّني لا أزور رئيسًا ولا ملكًا ولا سلطانًا ولا أميرًا، ما فعلتُ ذلك منذ ٦٠ سنة ولا أستطيع رؤيتهم، وصار من عادتي إذا لمحتُ صورة أحدهم عفوًا تتردّدُ على لساني عبارة التوحيد، فإن كان صالحًا ناله من الله –تعالى– رحمة وإكرام، وإن كان طاغوتًا ناله اللعنة والغضب. قالوا: إذن نكتب خطابًا نسجّل فيه مطلوبنا لِما ذكرنا.

وبعد أيّام جاؤوا بخطاب سجّلوا فيه مطاليبهم، ورغبوا إليّ أن أوافق عليه وأوقّع كما فعل كثير من العلماء. قلت لهم: أنا لا أوقّع عليه إلّا إذا كانت فيه مطاليبي الخاصّة. قالوا: هاتِ تلك المطاليب نسجّلها في الخطاب. فقدّمت لهم ما هذه صورته:

١- جعلُ الشريعة الإسلامية مصدر التشريع، لإصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

٢- تثبيتُ اللغة العربية تثبيتًا عمليًّا في جميع وسائل الإعلام والإعلان ومراحل التعليم العام والديني والعسكري، وتأخير دراسة الأجنبيات إلى مرحلة الثانوية، لإنشاء مواطنين يتقنون عروبة اللسان ويقدّسونها ويحبّون العروبة وأهلها.

٣- استقلالُ وزارة الأوقاف ماليًّا، لرفع مستوى العلماء والخطباء والوعّاظ والمساجد والمستشفيات الأهلية والتعليم الشرعي وتنمية أحوال وطننا الحبيب، أُسوة بأوقاف إخواننا النصارى.

٤- تعميمُ العلوم الشرعية على جميع أنواع التعليمين المدني والعسكري، لإنشاء أجيال تفهم دينها على الصواب، وتعرف واجباتها نحو الوطن الغالي والأمّة والبلاد

المفدّاة، وتساهم في تنمية الفكر والمجتمع والاقتصاد والعمل، وتنكر العصبية والطائفية والمذهبية.

٥- السماحُ للمجاهدين بالمرور إلى فلسطين والعراق وغيرهما، لنُصرة إخوانهم المنكوبين ومحاربة المعتدين.

قالوا: هذه المطاليب لا يُقبل منها شيء. قلت: إذن تتقبّلوا اعتذاري عن التوقيع. فذَهبوا بخطابهم وأمثاله مرارًا هم وغيرهم من الراغبين في الإصلاح، ولكنّ النتائج كانت سلبية مُوئسة، والأحداث تزداد سوءًا على سوء، ثم كان الانفجار في البلاد بالقتل والتعذيب والاعتقال والتخريب والتكفير وانتهاك الحرمات بوحشية وهمجية دون قيد لحقّ أو باطل. ولذلك التهبَتِ النفوس وتحرّقت من الألم، ونهض أحد الشبّان المتحمّسين في إحدى جلساتنا العلمية مستأذنًا، يصرخ بصوت صاخب أنه لا يجوز الاستمرار في القبولِ والصمتِ على ما يكابد الناس من البلاء والدمار، ولا بدّ من القيام بمساعدة المنكوبين.

قلتُ بامتعاض أخاطب الجميع: أيّها الأحباب، هذه فِتن يثيرها الحُلفاء وأذنابهم الخليجيون، وهم عصابة مجرمون يريدون تدمير البلاد واقتسامها بين الحلفاء كما كان منذ ١٠٠ سنة. فلا تحملوا أحدًا على غير ما يعتقد. دعوه يعمل بما يراه من الحقِّ والصواب، ولا تُرغموه على خوض معارك لا رضا له بها ولا قرار، ثم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وكونوا على حذر فيما تتصرّفون فيه أو تقولون لأن هؤلاء أصحاب النظام لا دين لهم ولا أخلاق ولا ضمائر ولا قوانين، والكلمة من أحدكم قد يكون فيها تعريض للقتل والتخريب والتعذيب والتشريد بلا فائدة مرجوّة.

وفي إحدى الجلسات أيضًا وقف أحد الشيوخ الأفاضل، وقال: أيّها الإخوة، لقد ارتفع ثمن الدولار في سوريّة إلى ٧٠ ليرة، وسيصل في التقدير إلى ١٠٠ ليرة، وقد وعدتنا دول الخليج أن تضخّ ملايين الدولارات ليعود إلى ثمنه الأوّل ٥٠ ليرة. قلتُ له وقلبي يتفطّر وعيناي تدمعان: أيّها الأخ الكريم، أنت تفكّر في ثمن الدولار ومواعيد الطواغيت الكاذبين، وتنسى الأموال تُحرق وتُسرق والأعراض تُنتهك ودماء الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال، والنبيّ ﷺ أكّد لنا أن تأمين الأعراض

والأموال والدّماء أقدسُ عند الله –تعالى– من الكعبة المشرّفة وأعظمُ حرمة وأكبر حقًّا. فإذا بصاحبنا هذا تنكسر نفسه ويستحيي ممّا قال.

على تلك الأحوال من التوتّر استمرّت المجالس المذكورة في تهيّب وتوقّع بلايا وأخطار، فنصحتُ المشاركين في الجلسات أن ينفضّوا وينصرفوا إلى أعمالهم وأهاليهم خشية الاتهامات المزوّرة المتكاثرة، وقبعتُ في داري مع كتبي المذكورة قبلُ، أتابع العمل فيها بعون الله وإرشاده، وقد انقطعَتِ الاتصالات والمراسلات بين المدن في سوريّة من ناحية وبين سوريّة والبلاد العربية وغيرها من ناحية أُخرى، فتعذّر عليّ تبادل تجارب الكتب المصحّحة للطباعة، وتعثّر عليّ العمل في ذلك. فلقد أُرسِل إليّ من بيروت ٤٠ نسخة من المفصّل والتفسير الوافي فرُدّت على الحدود، ثم أعيد إرسالها نسخة فنسخة، فلم يصل منها شيء إليّ بين أيدي المرتزقة والديمقراطيات المتناحرة.

ومع هذا فالناس لم يتركوني وشأني، فزارني شابّان لا أعرفهما ذكرا أنهما من العلماء، ويريدان معرفة رأيي وموقفي من الأحداث والحروب، فأجبتهما أنني لست من السياسيين، وهذه الأحداث ليست من الحرب والمعارضة في شيء، لأن الحرب والمعارضة يكون فيهما رجال لرجال وسلاح لسلاح، وهذه الأعمال الإجرامية فِتن تصيب المدارس والمساجد والمصانع والحقول والمخازن والشوارع والأرصفة والمنازل والأفران والأسواق والأعراض والأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال، وأنا لا حزب لي أنتمي إليه ليكون لي موقف معيّن أتوجّه وأوجّه إليه، ولا أتباعَ لي أو مريدين في ذلك، ولست مع طرف من المتقاتلين أيضًا.

ثم اتصل بي مَن لا أعرفه، ورغب إليّ أن يزورني في داري فاتّفقنا على موعد، ولمّا استقبلته في الموعد المحدّد رأيت شابًّا لم أره من قبل، وذكر لي أنه ضابط في جيش النظام ويحبّني ويريد هدية من كتبي، فقلت: وأنا أُحبّ من يريد الخير لسوريّة والعروبة والإسلام، وقدّمت إليه نسخة من «المورد النحوي الكبير»، وتابعت الحديث معه مؤانسًا. سألني عن رأيي في أوضاع سوريّة، فقلت له: إنّ دول الحُلفاء عصابة مجرمين، يريدون أن يهدّموا سوريّة ليقتسموها ويَشغلوا فيها شركاتهم

وعملاءهم ومشروعاتهم السياسية والاقتصادية. قال: لا يكون هذا إن شاء الله. قلت: إن شاء الله، لن يكون. ولمّا انصرف عاتبْتني زوجتي على صراحتي أمام ضابط في جيش النظام، فقلت لها: هذا هو رأيي أقوله لكلِّ سائل أو مستشير.

وفي غمرة أعمالي العلمية اتصل بي السيد عميد كلية الآداب في جامعة حلب، يبلغني رغبة سيادة رئيس الجامعة أن أشارك في الدراسات العليا بالكلية، ورجاني أن أتقدّم بطلبِ ذلك من الكلية للموافقة عليه، فشكرتُ لهما الإكرام والرغبة الطيّبة، واعتذرت عن تقديم ذلك الطلب كما اعتذرتُ من قبل، لئلاّ يكون بين أيدي طُلّابي في قِسم اللغة العربية ومجلس الكلية، ينظرون فيه ويتداولون الموافقة أو الرفض، فقام هو السيد العميد -شكر الله سعيه- بتقديم ذلك الطلب، وكانت موافقة القِسم والكلية والرئاسة عليه، وأُرسلَ إلى دمشق لإجراء ما يلزم التنفيذ.

وهناك كان وزير التعليم العالي من زملائي السابقين في الكلية، وبينه وبيني ما لا أعلمه، فرأى ألّا يجوز عمل شيخ تجاوز الثمانين في الجامعة، مع أنه في جامعات سوريّة آنئذٍ زملاء لي ومن أترابي يعملون ويكافَؤون بالعطايا والهبات، وأنا في متابعة أعمالي الخاصّة أردّد عندما أخرج من داري أو أرجع إليها هذه الآية الكريمة: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠].

ومع هذا فإنني في استقبالي لصنيع السيد الوزير تذكّرتُ مقولة لي كنت أُردّدها أمام الطُّلّاب والأصحاب، وهم يبتسمون لها متعجّبين -تلك هي أنّ لي ملائكةً تساعدني وشياطين- فيتساءلون: مساعدةُ الملائكة مقرّرة، أمّا الشياطين فكيف يساعدونك، أيها الشيخ العزيز؟ وأجيب أنّ ذلك تحقّق لي مرارًا وتكرارًا، يعترض الشياطينُ سبيل خيرٍ لي ويقطعونه، فيفتح الله -تعالى- لي سُبلًا أكرم من ذلك وأنعم، فألتفتُ إليهم بيديّ نحو الخلف، وأقول: لا بارك الله فيكم ولا أعطاكم عافية!

وفعلاً تلقّيت، وأنا في هذه الحال من الابتسام واليقين، تلقّيت خطابًا هاتفيًّا من شابّ نبيل في دار الخلافة استانبول لا أذكر أنني أعرفه، يرجوني أن أحضر إلى تلك الديار المباركة مُكرَمًا بالتقدير والاحترام، فشكرتُه على ذلك واعتذرت أنني في أعمال علمية تستغرق كافّة أوقاتي وجهودي، وماذا يكون لي من عمل

في استانبول؟ كان الردّ الطيّب أن جاءني الجواب بعد أيّام من بعض طُلّابي هناك بالدعوة والتشجيع، وكان لأخي الكريم الدكتور محمود مصري -أكرمه الله- بيان أنني سوف أشارك في دورات لتحقيق التراث وغيره.

ثم كانت مخاطبات بيني وبين ابننا العزيز الوفي الأستاذ نصر الله عبده، يطلب منّي فيها أن أقدم على استانبول للتدريس فيها، وانتهت باستقراري فيها بعد مشقّة ومخاطرة في الطريق، إليها كما سأقصّ فيما بعد..

وعلى هذا تيسّر لي الانطلاق إلى دار الخلافة لتكون هجرتي الثالثة بديني ويتيسّر جهادي بعلمي، وتكون خاتمة ذلك كلّه الهجرةُ إلى لقاء الله –تعالى- ورسوله، فقد اتصل بي الشيخ أحمد فارس -أكرمه الله على جهاده الطيّب- ليساعدني على السفر، وأنا أعلم المخاطر والعراقيل والبلايا التي تعترض ذلك. فكيف اختراق هذه الحجب والمتاريس والجيوش؟ مائةُ فصيلة تحارب النظام ومائة تناصره، وبين حلب والحدود التركية ساعة من الزمن لولا جحافل من ذلك ومرتزقة من الشبّيحة وشياطين الإنس والجانّ. ولا ينقذك بسلام إلّا خِرّيت في التنقّلات ونِطِّيس في إجراء المعاملات.

لكنّ الله غالب على أمره، فاستطاع سائق السيارة الخِرّيت النِّطّيس في ساعات متواصلة أن يدور بين شوارع حلب والطرقات الملتوية إلى كفر حَمرة فالصاخور فمَخارج المدينة إلى الحدود التركية، وهو يلتوي بنا في سُبل ومتعرّجات غريبة متقطّعة، ونحن نضبط أنفاسنا متوقّعين مداهمات الفئات والمرتزقة وسقوط القذائف والشظايا والانفجارات والمثبّطات للحركة. وهنا بعد عِياط ومِياط على الحدود التركية إجراءات معقّدة لدخول السوريّين، وامتطاء الطائرة إلى البلد الأمين استانبول، ثم ألقت الطائرة رحالها وهبطنا لنُلقي عصا التسيار ونَلقَى الإخوة الكرام في استقبالنا وإيصالي إلى دار ضيافة مركز «إيسار» المبارك.

نظرتُ حولي وأنا في السيارة، فرأيتُني في فُسحة قِمّة عالية من المدينة الطيّبة. قلت: نحن في «تقسيم»؟ قالوا: لا هذه «أسكِدار». قلت في نفسي: «أسكِدار»، زرتها منذ ٥٠ سنة، أبحث في مكتباتها الخطّية عمّا له علاقة بأعمالي العلمية. يا رعَى الله تلك الأيّام، أيام الشباب والنشاط ما أحفلها بالمَكرُمات والخير العميم!

ثم تساءلتُ ما معنى: «إيسار»؟ قالوا: هو اختصار بالحروف اللاتينية لا معنى له، قلت: إذًا الأَولى لنا أن نفهمه بالعربية على أنه من اليُسر مصدر الفعل: أيسَرَ يُوسِرُ إيسارًا، فإدارةُ هذا المركز الطيّب تستقبل الطُّلّاب والعلماء، وتيسّر لهم سُبل العلم والتعليم الشريفين، مع المكافآت والضيافة أشهرًا وسنوات، ثم تطلقهم في صفوف المسلمين لنشر العلوم الإسلامية وتهديم أركان الوثنية الخبائث.

وبعد استراحة بضعة أيام تشرّفت بزيارتي الأخَ العالم الصالح الأستاذ الدكتور رجب شنترك في مكتبه مرحّبًا ومشجّعًا على المبادرة إلى العمل الكريم لأنني كما قال شاب. قلتُ في نفسي: «أمِن الشيب هذا الوصف أم من الشباب»؟ ثم تدارسنا ما يتيسّر أمره من العمل، فكان الاختيار أن نبدأ بقراءةٍ درايةٍ لِما هو محترم جدًّا لديهم وبعيد عن دراسات المراكز العلمية والمجالس والمساجد والمعاهد والجامعات، إنه كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام.

الأعمال المباركة في استانبول

هذا منطلق العمل هنا، فكانت جلسات عامرة بالإخوة من الأساتذة والطُّلاّب العرب والأتراك وغيرهم، انتقل منها شذرات إلى مركز «إيلام» وإلى داري وبعض المساجد أيضًا لقراءة تفسير البيضاوي. تساءلتُ أيضًا ما معنى: إيلام؟ قالوا: هو اختصار بالحروف اللاتينية لا معنى له، وقد يكون له في العربية ما لا يُحمَد. قلت: إذًا الأَولى لنا أن نفهمه بالعربية على أنه مصدر للفعل: أولَمَ يُولِم إيلامًا. وفي الحديث الشريف:[1] (إنَّ هذا القُرآنَ مأدُبةُ اللهِ، فتَعَلَّمُوا مِن مأدُبةِ اللهِ ما استَطَعتُم). فإدارةُ هذا المركز الطيّب تستقبل الطُّلاّب والعلماء في مأدُبة أي: وليمة علمية، وتيسِّر لهم سبل الضيافة للعلم والتعليم الشريفين، مع المكافآت أشهرًا وسنوات في رياض العلوم الشرعية، ثم تطلقهم في صفوف المسلمين لنشر العلوم الإسلامية وتهديم أركان الوثنية.

وبعد أربعة أشهر من العمل المتواصل انتهت مدّة الضيافة في إيسار، تصوّرْ إنها أربعة أشهر لا أربعة أيام، ومعها مكافآت مالية عالية غالية! إذ ذاك جمعتُ حاجاتي الخاصة

١ مسند ابن أبي شيبة ١: ٢٥١.

وشددتها في الحقيبة، وخرجت لزيارة الأخ الصالح الأستاذ الدكتور رجب، فاستقبلني بالبِشر والطمْأنة، ورغب إليّ أن أبقى في الانتظار، لأعمل في مركز إيسار وأجد عملًا في الجامعة، قلت: وكيف العمل في جامعة، وقد مُنعتُ من ذلك في سوريّة لِما أنا فيه من الشيخوخة؟ قال بابتسامته المعهودة: السعي دائب والتوفيق حاصل، إن شاء الله.

هنالك قرّرتُ الانتظار، واتفقنا أن أقدّم مكتبتي الحلبية بما فيها من المخطوطات والمطبوعات وقفًا للمركز العامر المُضيف، وأجرينا العقد اللازم في كاتب العدل، والأوضاعُ في سوريّة آنذاك مساعدة على نقل المكتبة بما فيها، ولكنّ مجيء عيد مبارك أخّر الإجراءات القانونية، وصار رجال الخوارج داعش وذيول الباطنيّين والمرتزقة حول حلب، فتعذّرت الأعمال على النِّطّيسِين والخِرّيتِين، وتجمّدت الأيدي والنفوس كظيمة، ننتظر ساعة فرج تفتح لنا مجال العمل الطيّب بنقل المكتبة إلى قلوب متفتّحة ونفوس تتلقّى العلم بمحبّة وإكرام. وما ذلك على الله بعزيز.

شعرت بالرضا والاطمئنان للعمل في دار الخلافة المباركة، وقلت: أستطيع أيضًا مراسلة دور النشر من هنا لتبادل مقتضيات استمرار العمل بيننا، وكانت مجموعة من تجارب التصحيح قد استقرّت في مدينة حلب. فكيف الوصول إليها أو وصولها إليّ؟ تعقّدت الأمور جدًّا، ثم تيسّر لأحد أحبابي المجيءُ إلى تركية، فحملها معه مشكورًا مأجورًا من حلب، واستقرّت معه على ساحل البحر الأسود، ثم انتقلت بعون الله –تعالى– إلى أوربّة، ومنها إلى آسية، حيث استقرّت في مركز إيسار المبارك، ومنه إلى داري، وقد اختلطت فيها أوراق رياض الصالحين وأوراق إعرابه وإعراب القرآن الكريم، لكثرة ما جرى عليها من التفتيش والبحث بين مدن سوريّة والحدود التركية ومدنها العامرة. وكم عانيت في نسل بعضها من بعض لتيسير العمل! وكلُّ هذا هيّن ليّن مقابل وصول التجارب بدلًا من افتقادها والحمد لله.

عودة إلى الشباب الجامعي

الخبر المُدهِش حقًّا في مسيرة العمل التدريسي أن إدارة جامعة «السلطان محمّد الفاتح الوقفية» المباركة وعمادة كلّية العلوم الإسلامية الطيّبة أقرّتا الموافقة على

ذلك عندهما رغم السنّ العالية التي أنا فيها، ثم كان طلب شهادة الدكتوراه لإجراء ما يلزم من العَقد. ولكن أين الشهادة هذه وهي في أحضان مئات الديمقراطيات؟ لا بدّ منها وإلّا تعذّرت الإجراءات وانسدّت السبيل بعد إطلاقها، تساءل الإداريون فيما بينهم عمّا هم فيه من الحَيرة، فكان الاتفاق منهم بكرمهم ولطفهم قولاً واحدًا: المسلمون جميعًا يشهدون للأستاذ فخر الدين قباوة أنه دكتور في العلوم الإسلامية.

قلتُ لهم بكرم ولطف أيضًا: هذه هي أخلاق الرسالات السماوية وآداب النبوّات العالية، ورد فيها التصريح بقول الله –تعالى– مرارًا على لسان كلٍّ منها ومنهم عمّا كان قبلُ بدون لقاء له أو رؤية: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]. لَحَقٌّ أنّ العلماء الصالحين الأبرار هم ورَثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم. وبعد سنتين وصلتْ إليّ الشهادة الأصلية للدكتوراه بيدِ قادمٍ كريم من حلب، فعرضتها على زملائي الأحباب لأؤكّد صدقَ ما قالوا وثبوتَ ما قلتُ. والحمد لله ربّ العالمين.

والعقبة المستعصية الآن هي مشكلة اللغة، فالدراسات العليا في الجامعات كلُّها باللغة التركية أو الإنكليزية، وأخوكم فخر الدين لا يُحسن التدريس بغير العربية التي لا مجال لها في ذلك. ومِن ثَمّ بدأ العمل في المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية ريثما يُنظر في هذه العقبة الطارئة، فدرّست نصوصًا تفسيرية لطُلّابِ وطالبات السنة الثانية بعد التحضيرية، ورأيت أنهم يُحسنون تقبّل العربية لأنهم درسوا سنتَين ماضيتين على شيوخ من العرب الأقحاح.

ورأيت أيضًا أنهم يُتقنون تلاوة التجويد لِما في بلادهم الواعية من اهتمام بالعلوم الإسلامية الراشدة، فوجّهتهم إلى تلاوة التعبير، يكون فيها الأداء معبّرًا عن الأصوات والصيغ والتراكيب والعبارات وأساليب الإنشاء والخبر مع بيان الفصل والوصل والاعتراض والبدء والوقف، ليتفهّم السامع موضوع النصّ المقروء وحركة معانيه وأفكاره، وإن كان لا يُحسِن لغته. فاجأتْهم هذه القراءة، وظنّوا أنها تستبعد التلاوة المألوفة للقرآن الكريم، فشرحتُ لهم أنها ليست بديلًا من قراءة التجويد تحلّ محلّها، وإنّما هي نهج كريم للتلاوة مع التجويد، يساعد القارئ والسامع على فهم ما يُقرأ.

هنالك هدأت النفوس بعد أن توتّرت، وفعلاً ظهر التقبّل بالسرور، وكانت النتائج عالية مُشرِقة بعون الله، حتى إنّ إحدى الطالبات قالت لي بعد شهرين: لقد فرح أهلي بي وقالوا: ستكونين -إن شاء الله- مذيعة باللغة العربية. قلت لها بابتسام وتشجيع: أنا لا أريدكِ أن تكوني مذيعة، وإنما أريد أن تكوني مفسّرة لأخواتي في تركية، وهنّ أحوج إلى التفسير منهن إلى ما يكون من الإذاعات. وما أكثر الصالحات للأعمال الإذاعية!

كُلِّفت أيضًا بتدريس الإعراب لطُلّاب السنة الأولى بعد التحضيرية، فباشرت العمل بنشاط، وكأنني أستهلك الشيخوخة، لأستعيد خَطرات الشباب في ميداني النحوي العامر البعيد، وأنا أُردّد قول أحمد شوقي لمّا عاد من المنفَى إلى مصر:

ويا وَطَنِي، لَقِيتُكَ بَعدَ يأسِ كأنّي قَد لَقِيتُ بِكَ الشَّبابا

ولقد ألهب نشاطي أن وجدت في الطلّاب الأغرار تجاوبًا بالغًا وتعديلًا لِما أحمله من الأساليب التقليدية، إذ كانوا يعترضون بعض مقولاتي بما يقابلها من التوجّهات. فما أقوله من أن الجملة في محل رفع خبر والجار والمجرور متعلِّقان بالخبر المحذوف يردّونه بأن الخبر جملة والخبر شِبه جملة. وقد تقبّلت منهم أمثال هذا الاعتراض لأنه مقرَّر أيضًا، وهو صحيح وجيّد.

وخلال ذلك من العمل المبارك انحلّت عقبة اللغة في الدراسات العليا، فسُمح لأخيكم فخر الدين بتدريس مرحلتَي الماجستير والدكتوراه باللغة العربية التي تُسمَّى عندهم: اللغة الإسلامية، والحروف العربية هي عندهم: الحروف الإسلامية. أرأيتَ هذا الإكبار العظيم للغة القرآن الكريم، وانصرافَ العرب إلى اللهجات العامّية واللغات الأعجمية المتهوّدة؟

وقع الاختيار على مستوى الماجستير أن يكون له ما يبشّر بنضج الدرس النحوي في عهد النبوّة خلافًا لِما هو شائع من بدئه في القرن الثاني، فكان كتابايَ: «جذور التحليل النحوي في المدرسة القرآنية القُدمى، ومنهجية التحليل النحوي للنصوص الأدبية» مادّة للدراسة في فصلين متمايزين، وهكذا بدأ طُلّاب الجامعة والأساتذة

يرون ما لتاريخ النحو من أصالة في القرن الهجري الأول وفي مصنّفات التفسير خاصّة، ممّا لم يتنبّه له النحاة العرب قديمًا وحديثًا ولا المؤرّخون للنحو.

وفي مستوى الدكتوراه كان الاختيار لنصوص من الأدب العربي الحديث نثرًا وشعرًا في الفصل الدراسي الأول، ولنصوص من كتب التفسير في الفصل الدراسي الثاني، على أن يكون الاهتمام في ذلك بتحليل النصوص منهجيًّا للتفسير وأدبيًّا للأدب بالبيان واكتشاف الخصائص العلمية والفنّية في ذلك. وعلى هذا التفصيل مضت السنوات الأربع بعون الله –سبحانه– في أفضل ما يكون. وخلال ذلك تعرّفتُ إخوة مسلمين من البلاد العربية والتركية والإسلامية وغيرها: السنغال والصومال وموريتانية وبنجلادش وأذربيجان واليونان وألمانية ورومانية وأفغانستان وبلغارية وداغستان.. فلمستُ بعينيّ وأذنيّ وقلبي تفتّح النفوس للإسلام في العالَم، وقد مُنعتْ هذه القلوب الطيّبة من دخول مدارس سوريّة فعلًا بدعوى محاربة الإرهاب!

ومهما يكن فقد بدأ عملي في الكلية –أدام الله عليها الخيرات والبركات– بنشاط لا يصدَّق ممّن هو في الرابعة والثمانين من العمر، وكان عدد الساعات الأسبوعية هو المقرّر في النظام الجامعي ١٤ ساعة للأستاذ، ثم مرض أحد الشيوخ، فوُزّعت أعماله على زملائه فنابني منها ست ساعات، وجُعلت ساعاتي العشرون في بعض أيام الأسبوع، والباقي للراحة. وفعلًا قمت بذلك عدّة أيّام، إلّا أنني شعرت بالقصور والعجز عن المتابعة، لعُسر التنقّل بين استانبول الشرقية والغربية، يقتضي خمس ساعات للذهاب والإياب مع العمل المحدّد.

فزرتُ فضيلة العميد الأخ الدكتور أحمد طوران أرسلان –حفظه الله بالتوفيق والفلاح والرضا– وقلتُ له بلطف ومداعبة: هل تستطيعون الاحتفاظ بالنشاط في العمل يوميًّا ثلاث عشرة ساعة متواصلة؟ فأجاب بابتسام: لا يمكنني هذا. قلت: بالأمس أمضيتُ مثل ذلك فعلًا، وأخشى أن يصير عندكم في الكلية مريضان بدلاً من الواحد. فتلبّث قليلًا بحَيرة، ثم رأى –أكرمه الله– أن تُزال عني الساعات الإضافية لأستطيع متابعة العمل.

تيسّر ذلك بعون الله –تعالى– واستمرّ على التمام سنتين دراسيتين، أحسستُ في أواخرهما بالتهالك والانحطاط، فرجوت من مَقام العِمادة أن تقبل اعتذاري عن العَقد للعام الثالث، ولكن كرمهم لم يتقبَّل ذلك، واقترحوا حلًّا وسطًا «إندِريم» بالاقتصار على نصف النصاب يبقى في الدراسات العليا، وعلى ذلك مضى العام الثالث بشِقّ النفس، فأعدتُ رجائي بقبول الاستقالة، فما كان لهم رضا وألحّوا على بقائي في العمل ولو يومًا واحدًا في الأسبوع، فتقبّلت ذلك برضًا على أن يكون في الراتب حسم «إندِريم» يناسب العمل. وفعلًا صار الراتب ثلث قدره الأول، وانتهى العام الرابع بوجوب الاعتذار نهائيًّا لأنني كما قلت لهم مداعبًا بابتسام: أكرمني الله –عز وجل– ببركة العمل عندكم أنني بدأت لديكم بقَدَمَين، وأودّعكم وأنا بثلاث، والثالثة هذه العصا. كانت الضحكات دليل الرضا والقبول. والحمد لله رب العالمين.

على أنّ الذكر الحميد بحقّ مع التمجيد والإكرام والتقدير هو ما نقله أخونا الدكتور محمود مصري –أكرمه الله بالتوفيق والقبول الطيّب– إلى تركية من النشاطات العلمية العملية، بعد أن سُدّت سُبلها في حلب وأصبحت عسيرة المنفذ والتحرّك. ولقد كان وعدني في مخابرات ذكرتُها قبلُ أن يكون لي عمل ميسّر في تركية، وذكر من ذلك إمكانية دورات في التحقيق والبحث العلمي. وها قد جَدّ الجِدّ وحَمِي الوطيس في تلك الميادين الكريمة، وانتقلَتِ المنابر إلى الجامعات والمراكز العلمية والمجالس الوقفية في استانبول وفي المدن التركية المتعطّشة إلى العلوم الشريفة بكلِّ محبّة وتشجيع وتقدير.

فوجئت حقًّا بما رأيتُ وحضرت وشاركت. كانت الفاتحة بدعوة من مركز علوم القرآن «كوريمير» في منطقة أتا شهير من استانبول الشرقية، يَختار هذا المركز الفاضل من الأطفال مَن هم في سنّ الرابعة، ليعتني بهم في مدرسة داخلية كاملة بتحفيظهم القرآنَ الكريم وإعدادهم دعاة وشيوخًا في علوم القرآن، فقلتُ للمشرفين على ذلك من كلِّ قلبي: إنني في الرابعة والثمانين، ولَوَدِدتُ أن أخسر ثمانين سنة من عمري ليكون لي نصيب في هذا العِلم الشريف. وتساءلتُ: ما معنى: كَورَمِير؟ قالوا:

هو اختصار بالحروف اللاتينية لا معنى له. قلت: إذًا الأَولى لنا أن نفهمه بالعربية على أنه مبالغة للوصف بالكرم، وهو يُكرّم طُلّابه بالعلوم الشريفة، وإدارةُ هذا المركز الطيّب تستقبل الأطفال، وتيسِّر لهم سبل الضيافة للعلم والتعليم الشريفين تثبّتهما في القلوب والحناجر، مع المكافآت أشهرًا وسنوات في رياض العلوم القرآنية، ثم تطلقهم في صفوف المسلمين لنشر الهداية وتهديم أركان الوثنية الخبائث.

ثم خاطبتُهم قائلاً بصوت متهدّج: لقد شُغلنا نحن بالوثنيّات وباللغات الفرنسية والإنكليزية والروسية والعِبرية والفارسية والسُّريانية عن اللغات الإسلامية، وذهبنا نعلّم الشيوعيين العربية في الصين الشعبية، ولم نساعد إخواننا في العالم الإسلامي بما يحتاجون إليه ويحبّونه ويقدّسون. وها نحن قد ابتلانا الله -سبحانه وتعالى- بالفِتن في بلاد العرب، وشرّد كثيرًا منّا في بلاد أعدائنا من الحُلفاء لاجئين خدمًا وجواسيس في سوق النِّخاسة، وخيّرنا -نحن العرب- بين أن نُقتل شهداء لنرحل إلى جنّة السماء وبين أن نهاجر إلى تركية جنّة الله في أرضه، ننشر العلوم الإسلامية والعربية برضا وإخلاص واطمئنان. لَحَقٌّ أنّ مِن الناس مَن يُجرّون إلى الجنّة بالسلاسل، وصدق رسولنا الكريم، وإني على ذلك لَمِنَ الشاهِدِين.

ثم توالت حركات النشاط، فكانت دورات ومؤتمرات للبحث العلمي وتحقيق التراث، كان منها مؤتمرٌ في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية ومركز إيسار تحت عنوان «الدولة بين الماضي والحاضر» شاركتُ فيه ببحث عنوانه «الدولة والبحث العلمي»، ودوراتٌ متوالية في مركز إيسام لعمليات التحقيق نظرًا وتطبيقًا. تساءلتُ كذلك ما معنى: إيسام؟ قالوا: هو اختصار بالحروف اللاتينية لا معنى له. قلت: إذًا الأَولى لنا أن نفهمه بالعربية على أنه مصدر للفعل: أوسَمَ يُوسِم إيسامًا، والإيسام هو التجميل ونشر الوَسامة وتثبيت الأوسمة في الصدور. فإدارةُ هذا المركز الطيّب تستقبل الطُّلّاب والعلماء، وتيسِّر لهم سبل الضيافة للعلم والتعليم الشريفين تثبّتهما في القلوب والحناجر أوسمةً فاخرة، مع المكافآت أشهرًا وسنوات في رياض العلوم الشرعية، ثم تطلقهم في صفوف المسلمين لنشر العلوم الإسلامية وتهديم أركان الوثنية الخبائث.

كانت الدورات في مركز إيسام كما ذكرتُ، وهي متوالية من بدائية ومتقدّمة وتأهيلية نظريًّا وعمليًّا مع تهيئة نسخ مخطوطة لممارسة التحقيق بإشراف العلماء والخبراء، ثم انتقلت الجلسات إلى الجامعات القريبة في استانبول وما حولها، وأنا أشارك بأقصى ما أستطيع في ذلك. وآخر ما تيسّر لي العمل فيه بشِقّ النفس دورة للبحث الإسلامي في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية، قدّمت فيها منتهى ما أصبو إليه وهو تحت عنوان: «ضبط النص وتحريره وتنسيقه في البحث العلمي».

فلقد تكاثفت الدورات، فجُمعت في العُطل الدراسية ليتسنّى للأساتذة والطُّلّاب مشاركة فعلية فيها، فأصبحتَ ترى في الشهر الواحد دورتين وأكثر للتحقيق. قلت للأخ الكريم محمود بدُعابة: يا أخي يا طيّب، أنت تظلم الأساتذة بما لا يعرفه التاريخ. قال: وما ذلك؟ قلت: النساء لهن في الشهر دَورة واحدة، وإذا كان للذكر مثل حظ الأُنثيين فحسْبُه دَورتان في الشهر، ولا يحتمل الثلاث ولا الدورات تلو الدورات.

ومهما يكن فقد تحاملتُ وتحمّلت أقصى ما استطعت، ثم شعرت بالعجز عن المتابعة، فاعتذرت بكلِّ أسف، وصرت أحضر بعض الجلسات للمشاهدة والمباركة، وأنا أخاطب الزملاء الكرام بالتشجيع، وأذكر لهم حال دُريد بن الصِّمّة، حين بلغ سنّ المِائتَين، وشارك في غزوة حُنين مرشدًا بالرُّبوض في هَودج لعجزه عن حمل السلاح، وهو يتمنّى أن يكون شابًّا يجري في لقاء الأقران، ويُنشد في ذلك قوله:[1]

يا لَيتَنِي فِيها جَذَعْ أخُبُّ فِيها، وأضَعْ
أقُودُ وَطفاءَ الزَّمَعْ كأنَّها شاةٌ صَدَعْ

بل إنّ مَثلي هو مَثل عُمر بن أبي ربيعة، عندما أدركته الشيخوخة أيضًا، وعجز عن متابعة تلك الصبوات الغزلية الشاعرة، صار إذا صادف شابًّا جميلًا نصحه أن

١ الشعر والشعراء، ص ٧٣٨.

يستمتع بشبابه تغزّلًا قبل أن يندم عليه.[١] فهو يريد أن يورّث مَن بعده ما لديه من أشواق للتعبير عن الغزل وتصوير ما كان يصبو إليه من منازع الهوى وألوان الجوى وأصباغ المواصلة واللقاء والفراق والنزاع، ويريد أن يستمتع هؤلاء بما لم يقدَّر له أن يتابع ممارسته، ليملأ نفسه بالدعوة والتبشير والتشجيع، وكأنه على قول أبي نُواس: «قَعَدِيٌّ يُزَيِّن التّحكِيما». ولمّا رأى في طريقه عاشقين متعذّرًا عليهما الزواج قال لهما: «اذهبا وتمتّعا»، ثم سعى لهما في ذلك بصَداق من ماله.[٢] تلك حالي مع مواصلة الإعجاب والدعاء بالتوفيق والنجاح والقبول الطيّب من المولى عز وجلّ.

وكان مع ذلك كلّه بتيسير من الله –سبحانه– خلال السنوات الأربع العامرة قراءاتُ دراية تراثية في كلّية العلوم الإسلامية، شارك فيها أساتذة وطُلّاب –أكرمهم الله– هي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان، وتفسير الكشاف للزمخشري، ووحي القلم للرافعي، وإعراب الجمل وأشباه الجمل، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي شارك في قراءته فضيلة السيد عميد الكلية الأستاذ الدكتور أحمد طوران أرسلان. حفظه بالرعاية والتوفيق والعمل الكريم.

وفي مركز إيسار استمرّت القراءات لمغني اللبيب والخصائص، مع تدريس لنصوص من التفسير وإعراب القرآن الكريم، ثم نُقلتْ جلسات بعض ذلك إلى داري، وفي مركز إيسام كانت قراءات دراية أيضًا لبعض المصادر التراثية، منها الخطّية يحقّقها زملاء وطُلّاب، ومنها مطبوعات كتفسير الكشاف للزمخشري، والإعراب المنهجي للقرآن الكريم أيضًا، وفي كلية العلوم الإسلامية كان ميدان العمل للدراسات كما ذكرتُ. والحمد لله أوّلًا وآخِرًا.

ومِسك الخِتام أن ما شاءه اللهُ كان: يسّر لنا الخير والعمل الكريم والاتصال بالعالَم الإسلامي عمليًّا للتعاون والتبليغ والتعليم وسعة النشر، وهيّأ لنا مجلّة مباركة في جامعة محمد الفاتح الوقفية باستانبول، ترعاها كلية العلوم الإسلامية. فالشكر والتقدير لهذه المؤسسة الغالية ولإدارتها الفاضلة، بعمادة الأخ الأستاذ الدكتور أحمد

١ الأغاني ١١/ ٧٧.

٢ المصدر السابق ١١/ ١٤٥.

طوران أرسلان وأعوانه من إداريين وأساتذة، والذكر الحميد للجهود العالية ودعوتي لتسلّم درع الجهاد في سبيل الله. نسأله ـ تعالى ـ أن ينصرنا على القوم الكافرين والمغضوب عليهم والضالّين وعلى أنفسنا، وهو الرحمن الرحيم.

الدكتور فخر الدين قباوة في حفل تكريمه في كلية العلوم
الإسلامية في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية.

الدكتور فخر الدين قباوة في دورات تحقيق المخطوطات في حلب واستانبول.

قائمة المصادر والمراجع

- **الشعر والشعراء**، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- **كتاب الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار صادر، بيروت.
- **فقه السيرة**، لمحمد الغزالي السقا، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ.
- **المصَنَّف**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، ت محمد عوامة، دار القبلة.